الفصل العاشر :

تكامل العمرية

تكامل العمرية

بعد كل ما سبق ، هل يحق لنا أن نعتبر عمر بن الخطاب شخصية عضالا ؟ أى تجاوزت كل حدود القدرات الإنسانية وعسر على من جاء بعده أن يسير على نهجه أو أن يحقق ما حققه ؟

أن يسير على نهجه أو يتبنى نظرته أو يفكر تفكيره ... لا . ودعنا من محدودية النظر وضيق الفكر ، ولنخرج من عطفة التقديس لأى شخصية إنسانية ، فنحن لا نطالب أحدًا أن يسير على نهج هذا أو ذلك ، كى لا نتهم بفرية التعصب أو التحيز ولكى لا نكون أوصياء على أحدٍ ، ولكى لا نصادر مبدأ الحرية لأى إنسان أن يكون ما يشاء .

ولكننا نطالب – وكل المنصفين – أن تكون طريقة ونهج أى إنسان ملتزمة بالمبادئ الإنسانية من حيث تحرى العدل والخير والحق والإخلاص والصدق والنقاء والطهارة ، إذن لا يعنينا أن تسير على طريق هذا أو طريق ذاك أو تختط لنفسك طريقا جديدًا .

والسؤال المطروح : هل النهج الذى تسير عليه مطابق للمواصفات الإنسانية أم لا ؟

فإن كان مطابقًا ... لك أن تضع عليه أى مسمى ، وما تريد من لافتات ، وإن لم يكن مطابقا فلا يجدى أن تضع عليه أشرف وأسمى المسميات ، فالخارج لا يطابق الداخل والظاهر لا يتفق مع الباطن ، وهذا نوع من الغش ، وهو ليس مسموحًا به .

أن يحقق ما حققه عمر ... إن طالبنا أحدًا بذلك فنحن نسىء لعمر أولا ونسىء لأنفسنا ثانيا .

نسىء لعمر إن جعلنا إنجازاته وأعماله وأفعاله قيدًا نقيد به الآخرين وجعلناه دونا عن غيره سواء فى العصور الخالية أو العصر الحالى – معيارًا على ضوئه تقاس إنجازات وأعمال الآخرين لأننا لو فعلنا ذلك ، فسنجد هجمة شرسة على عمر وعلينا

- على عمر تظهر عيوبه وأخطاءه ، وتضخم تلك العيوب ، وتبشع تلك الأخطاء .
- وعلينا، بأن تسفه ما نقوله ، وتفند أفكارنا ، وتصفنا بالمتجمدين والمتحجرين المولعين بالنظر إلى الخلف .

لذلك فقد أرحناهم من تجشم وتحمل عبء تلك الهجمة ، فقد اعترفنا أن عمر كأى إنسان له أخطاؤه وله عيوبه ، وقلنا إن تلك الأخطاء والعيوب ليست من طبيعة عمر خاصة وإنما هى طبيعة النفس الإنسانية كما خلقها الله ، فأخطاء عمر وعيوبه لا تخرجه عن هذا النطاق ، وإنما تؤكد على إنسانيته ، وأقررنا أننا لا نحجر على أحد ولسنا قيدًا يمنع الانطلاق والابتكار ، وإن المجال أوسع وأشمل من أن نقيد الناس بأنموذج واحد ، وحولهم المئات بل الآلاف .

ومع ذلك تبقى شخصية عمر مغنمًا لدراسة علم النفس وعلم الأخلاق على حدٍّ سواء علم النفس لأن شخصية عمر متكاملة ، شريحة تستطيع أن تدرس من خلالها كل ما تتصف به النفس الإنسانية من صفات متميزة ، واضحة ، متعددة لم ينتقص منها صفة أو حتى خلجة من خلجات النفس الإنسانية كما خلقها الله ليس هذا فحسب بل كل تلك الصفات متآزرة متعاونة فيما بينها يشد بعضها بعضًا .

وعلم الأخلاق لأن شخصية عمر استطاعت أن تصل إلى أقصى ما تستطيع أن تصل إليه النفس الإنسانية من طموحات وآمال ، وقلنا فى فصل سابق إنها لم تكتف بذلك بل تجاوزت تلك الحدود ، أو (خطوط النهاية) كما يقولون فى المباريات الدولية ، أو كسرت

الرقم القياسى ، ووضعت خطوطا ومقاييس لم يسبق لنفس إنسانية أن وصلت إليها من قبل ، وفتحت مجالات أوسع أمام الإنسان تلك المجالات دعوة لشحذ الهمة ، وتقوية العزيمة ، وصدق النية ، وعلمتنا درسًا مهمًّا : إنه ليس هناك حدود أو نهايات للقدرة الإنسانية ، على هذا يمكن اعتبار عمر ظاهرة ولكن منفردة ، هذا إذا اعتبرنا الظاهرة شيئًا خارجا عن مسار المألوف والمعتاد من النفس الإنسانية .

وإذا كان هذا جائزا ، فهل نحن فى حاجة إلى دراسة هذه الظاهرة ، أى فى حاجة إلى دراسة الشخصية وتحليلها إلى عناصرها البسيطة ؟

أو هل نحن فى حاجة أن نضع تلك الشخصية وفق تصنيفات علم النفس للشخصية الإنسانية ؟ ولكن لا ينبغى أن ننسى أن موضوع الدراسة (الشخصية) هو الأسبق وهو الباقى وهو الثابت ، وأن المنهج مستحدث ، وقد تأتى نظريات تخطىء نظريات موجودة الآن ، لذا فالمنهج متغير ، وقد يقصر عن الإحاطة بالمادة المدروسة . فقد تَعْيِنُ الشخصية إن أخذنا بتصنيفات ومناهج علم النفس لتساعدنا فى سبرغور تلك الشخصية ، ولكنها محاولة ويحدو تلك المحاولة سلامة النية ، ونبل المقصد .

الشخصية والواقع :

يحمد فى الطبائع الإنسانية تعدد ما تشتمل عليه من صفات ، وما تتصف به من مناقب ؛ لأن ثراء الطبائع وغناها منوطة بهذا الأمر .

ويحمد لها أكثر وضوح وقوة وتميز تلك الصفات .

ويحمد لها أكثر وأكثر: تضافر وتكامل تلك الصفات .

فكل الصفات متآزرة متعاونة يسند ويقوى بعضها بعضا ؛ لتخلق فى نهاية الأمر مزاجًا وقوامًا قادرًا لا أن يتعامل مع الواقع بذكاء وكفاءة ليصلح منه ما فسد، ولكنه قادر قدرة فريدة أن يخلق واقعا جديدًا يتفق وتلك الطبيعة الغلابة .

وحينما تتعامل النفس الإنسانية مع الواقع المعاش فهى مضطرة – بداية أن تتنازل حتى ولو على الحد الأدنى من حريتها ، وأن تقبل بالبدائل ، لأن الواقع بحتميته وصرامته قد يتغلب على النفس ، وتلق النفس ورغبتها القوية والملحة فى إصلاح هذا الواقع يجعلها تتصالح – مرغمة – معه ، ولو مؤقتا ، وهى فرصة للمصلح والواقع .

فرصة للمصلح ليبذر بذور الخير علها فى يوم ما تنبت وتستغلظ ويستوى سوقها

فرصة للواقع ليراجع نفسه علَّه يجد فى المعروض أمامه النفع والخير أو هى هدنة يعطى كل منهما الفرصة للآخر ، ويتركان الزمن ليفعل فعله ويؤثر بعدما عز حسم المعركة فى الزمن الراهن ، وهذا التصالح من قبل المصلح مع الواقع نوع من النبل أو الشرف أو قل فى أوسع معانيه طراز فريد من الرحمة ، وهذا حادث بصفة خاصة مع الأنبياء والرسل وبصفة أخص مع رسول الله فهؤلاء يتعاملون مع الواقع بأسلوبين ... الذكاء والرحمة .

الذكاء :

١. بأن يحاول أن يستثمر نواحى الصلاح والخير وينميها ويقويها ويعطى لها فرصة لتنتشر وتسود ، ومخاطبة نواحى النبل والشرف فى ضمائرهم
٢. محاولة إصلاح المفسد ، وهداية الضال ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن وجذبهم إلى معسكر الخير ، وتقوية نواحى الخير ، وإضعاف نواحى الشر وإن لم تنجح هذه الوسيلة ، فليس على الأقل تحيد الشر كى لا يقف عائقًا أو حائلا يعوق أو يحول بين التعامل مع الواقع والاستفادة من العناصر القابلة أو المستعدة

للتغيير ... فأهم ما يحرص عليه المصلح أن يكون هناك تفاعل ... دينامية...حركة نشطة بينه وبين الواقع وأكثر ما يخشاه الثبات والجمود ، لأن أخطر ما يواجه أى دعوة فى بدايتها هذا الثبات والجمود ، وانقطاع الصلة أو العلاقة الحيوية بينها وبين الواقع

الرحمة :

الجهل – الغفلة – الغرور – العزة – التكبر – الأنفة – الحمية – الغباء – الحمق الرياء – العتامة ... كل تلك الصفات ، أو واحدة منها قد تمنع الإنسان أن يستجيب لداعى الإيمان ، وقد لا يكتفى بموقف الرفض ، بل يعمد إلى الحرب والصراع ومع ذلك فهؤلاء فى حاجة إلى نوع من التأنى أو من التريث ، فى حاجة إلى تقدير ما يعانونه من مرض ، لأن تلك الصفات قد تكون صفات عارضة ، ليس من صلب شخصياتهم ، وليس خلقا ثابتًا فى طبعهم ، فما هى إلا قشور سطحية يختلف سمكها من شخص لآخر ، كل منهم فى حاجة إلى هدنة أو وقفة ، يراجع أو يقيم أو يتأمل أو يوازن أو يقارن أو يعادل ، وهذه الوقفة فى صالح الحق والخير ، فإذا وقف الإنسان تلك الوقفة ، وأعطى لنفسه تلك الفرصة ، فمعروف أى السبل سيختار ، وأى جهة سيتوجه إليها ، فكما قلنا إن تلك أمراض تصاب بها الشخصية ، وأى مرض فى حاجة إلى وقت وعلاج كى يتخلص الإنسان من هذا المرض وتزايله أعراضه ، ومن ثم تبرأ الشخصية، والأمل فى الشفاء وارد ،ما لم يصل المرض إلى القلب ، بعدما تعدى السطح ، لأن وصول المرض إلى القلب لا أمل فى البرء منه :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ... ﴾ (١)

١- سورة البقرة : من الآية ١٠ .

وأهم دواء بل أنجع دواء لتلك الأمراض الخلقية هى الرحمة وما يستتبعها من صبر وحنو وعطف وشفقة وصفح وغفران ... وسائل علاج يستعين بها النبى أو المصلح فى علاج النفوس ، فالطبيب لا يحاكم المريض على مرضه ولا يلومه ولا يعاقبه ، كل ما يشغل الطبيب هو العلاج واتباع أجدى وأيسر وأسهل السبل للوصول إلى الشفاء والبرء من تلك الأمراض ، مستعيًا بالصبر والحكمة والتأنى والتريث ومقدرًا ضيق وتبرم وتململ وسأم وألم ومعاناة المريض .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (١)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٢)

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ... ﴾ (٣)

الواقع وشخصية النبى :

تلك هى شخصية النبى ... عمادُها الرحمة ، والرحمة فى أبسط معانيها : أسلوب أو طريقة للتعامل مع الواقع ومع الناس بهدوء وحكمة ولين وصبر بغية الإصلاح ، بدون إفراط أو تفريط . أسلوب يتفق اتفاقًا حكيمًا مع الواقع : "وهذا شأنه ﷺ يدرج القوم إلى الدين رويدًا رويدًا ، ويلين لهم من جانبه ويتساهل فى مطالبه تأليفًا لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد ، حتى إذا وصل بهم إليه اطمأن إلى أنهم سيركبون الصعب على النفس وعلى

١- سورة الإسراء : من الآية ٨٢ .
٢- سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .
٣- سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

المألوف من عاداتهم ، ويتحملون المشاق فى كل جانب من جوانب حياتهم فى سبيل نصرة ما آمنوا به واستمرار بقائهم عليه" [1]

والرحمة صفة إنسانية ، ومنة ربانية يمن الله بها على من يشاء من عباده ولكن قد تدفع ظروف واقعية وعوامل نفسية الإنسان أن يخرج أو يتجاوز إطار الرحمة أو حدودها إما بالمبالغة أو النقص ، فإذا بالغت فى الرحمة أصبح الأمر أمر تساهل وإفراط ، وقد لا يؤدى التساهل والإفراط إلى ما تؤديه الرحمة ، وإذا تنقصت من الرحمة أصبح الأمر أمر شدة وقسوة وغلظة ، ولا يؤدى هؤلاء إلى ما تؤديه الرحمة .

الرحمة بنسبة محددة ومقننة بميزان حساس ودقيق ، أو هى خط وضع بدقة متناهية لتطويع الواقع والوصول به إلى مراد الله .

ولا يستطيع الإنسان أن يحافظ على تلك النسبة ، ولا يستطيع الالتزام بهذا الخط الحرج ، لأن المشاعر والأحاسيس لا يملك الإنسان التحكم فيها أو ضبطها فهى – دائما عرضه للتبديل والتغيير ... مع أن الرحمة المقصودة – كما قلنا أسلوب أو طريقة معينة للتعامل مع الواقع أو الناس ، وهى ليست أسلوبًا لازمًا فلابد وأن تستخدم فى موضعها الصحيح "أشداء على الكفار رحماء بينهم"

فاستخدام الرحمة فى موقف الشدة نوع من الجبن والخور ، واستخدام الشدة فى موقف الرحمة نوع من الفظاظة والغلظة .

ولكن لا أحد يستطيع أن يحافظ على هذا الخيط الرفيع الذى يفصل بين التساهل والإفراط وبين الغلظة والشدة ، حتى الأنبياء أنفسهم قدلا يستطيعون هذا الأمر ، لأنه خارج طوق النفس الإنسانية : "إن الأنبياء" بشر فحسب ، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحى

١- اجتهاد الرسول : فضيلة الشيخ/ عبد الجليل عيسى – صفحة ٩٠ .

الالهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى ، وجاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ، كما يجوز عليهم النسيان . ويتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى ، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شأنه وتزداد شوقا إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته" (١)

والنبى ﷺ قد يتغلب عليه الشعور والإحساس بالرحمة ويبلغ هذا الشعور منتهاه حتى إنه ليتجاوز الخط أو الإطار المحدد للرحمة وهنا يتدخل الوحى منبهًا لهذا التجاوز "قد يقع من الأنبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى وأنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذا أصلا بل ينبههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ويظهره لعباده وربما عاتبهم على ذلك بالكلام ، كما فعل مع نبينا ﷺ فى أمر (زينب) وقصة ابن أم مكتوم وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام" (٢)

وهناك موقفان تغلبت الرحمة فيهما على رسول الله ﷺ أو قل هى رغبة جياشة نبيلة تدفع صاحبها بكل إخلاص ، ورأفة وشفقة وحرص على هؤلاء الذين لا يقدرون خطورة وحرج موقفهم وعنادهم وتمسكهم وإصرارهم على الضلال . رحمة تدفع صاحبها أن يقتل نفسه أسفًا وحزنا لأنهم لا يؤمنون :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(٣)

رحمة تجعله يحب عدوه ومن كفر برسالته :

---

١ - اجتهاد الرسول – فضيلة الشيخ/ عبد الجليل عيسى – صفحة ٥١ .
٢ - المصدر السابق – صفحة ٣١ .
٣ - سورة الكهف : الآية ٦ .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... ﴾[1]

رحمة تدفعه أن يشعر بالمسئولية الكاملة فى عدم إيمانهم ، ويشعر فى قرارة نفسه أن عدم إيمانهم ربما يكون تقصيرًا منه أو عدم القيام بدوره .

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... ﴾[2]

رحمة تجعله يبذل كل ما فى طوق النفس الإنسانية من جهد وطاقة كى يهديهم إلى النور والإيمان ويجنبهم الظلام والضلال .

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ... ﴾[3]

وقد بين القرآن الكريم سبب تلك الرحمة :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]

إن هذا الرسول الكريم منكم ، فأنتم بعض منه ، وهو بعض منكم ، التحام عضوى بين الرسول وبينكم ، امتزاج كامل بينه وبينكم ، وقد جاء تفسير تلك الآية فى الكشاف : "عزيز عليه ما عنتم ... أى شديد شاق لكونه بعضا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب (حريص عليكم) حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤوف رحيم) .. وقيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ فى قوله رؤوف رحيم" [5]

---

١ - سورة القصص : الآية ٥٦ .
٢ - سورة البقـــرة : الآية ٢٧٢ .
٣ - سورة النحـل : من الآية ٣٧ .
٤ - سورة التوبـة : الآية ١٢٨ .
٥ - تفسير الكشاف – المجلد الثانى – صفحة ٢٢٣ .

والرحمة ليست ضعفًا إنسانيًّا كما قد يفهم البعض ، وإنما هى فى حقيقتها قدرة فائقة وقوة غلابة لا تنبت إلا فى نفوس الشرفاء والنبلاء وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل وإمامُهم محمد رسول الله ﷺ ؛ لأن تلك القدرة والقوة تستطيع أن تجتث بذور الكراهية والحقد والغضب والضغينة والغل ، وتنبت مكانها بذور التسامح والصفح والغفران والعفو والإحسان .

والرحمة بهذا الوصف لا يقدر عليها سوى مخلوق واحد هو النبى محمد ﷺ

الموقف الأول : لذى تجاوزت الرحمة حدودها ، موقفه من (عبد الله بن أبىّ) وسنجد عمر علامة بارزة فى هذا الموقف ... إنه هو الصاحبى الوحيد الذى أشار أن الرحمة هنا تجاوزت حدها ... "قال ابن كثير : قال أرسل عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له ﷺ : "أهلك حب يهود) . قال : يا رسول الله إنما أرسلتُ إليك لتستغفر لى ، ولم أرسل إليك لتؤنبنى . فاستغفر ﷺ له ، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه (إذا مات) فأعطاه إياه .

قال فى تفسير (المنار) تعليقا على ذلك : والظاهر أنه ﷺ كان يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم كما كان يدعو للمشركين ويقول "اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" لكن الله سبحانه وتعالى لم يقر رأيه ، وبالتالى لم يستجب لدعائه كما جاء فى كتابه الكريم : "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم" [1]

الموقف الثانى : الذى تجاوزت الرحمة حدودها ، موقف أسرى بدر ، وسنجد عمر علامة بارزة فى هذا الموقف

١ - اجتهاد الرسول – فضيلة الشيخ – عبد الجليل عيسى ١٠٥ .

"لما كان يوم بدر جىء بالأسارى فقال أبو بكر، يا رسول الله، قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم وقال عبد الله بن رواحه: انظروا ديًا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارًا فقال العباس – وهو يسمع ما يقول – قطعت رحمك. فدخل النبى ﷺ ولم يرد عليهم شيئًا، فقال أناس يأخذ بقول أبى بكر وقال أناس: يأخذ برأى عمر فخرج رسول الله ﷺ فقال: "إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله يشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام، قال:

﴿... فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]

ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام، إذ قال:

﴿...رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ...﴾[3]

ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، إذ قال:

﴿...رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[4]

ثم قال ﷺ: "أنتم عالة فلا ينفلتن أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضرب عنق"

---

١ - سورة إبراهيم: من الآية ٣٦.
٢ - سورة المائدة: الآية ١١٨.
٣ - سورة يونس: من الآية ٨٨.
٤ - سورة نوح: من الآية ٢٦.

فانزل الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]

فلما كان الغد ، لقى عمر النبى ﷺ . فقال كاد يصيبنا فى خلافك شر يا عمر

العُمرية :

الواقع والناس كانوا فى مسيس الحاجة إلى هذا النوع الرفيع من الرحمة التى تفرد بها رسول الله ﷺ دون خلق الله .

لأن الواقع فى الأطوار الأولى لأى دعوة فى حالة غليان ، اضطراب سيولة تشكل،قيم عتيقة راسخة كرسوخ الجبال تُزل وقيم جديدة غير مألوفة تؤصل وتؤسس ، عادات وتقاليد مضى على ممارستها آلاف السنين ، يُطالب الناس بالتخلى عنها وسنن وطرق يجد الناس ألا مناص من الالتزام بها لتتفق سيرة حياتهم والدعوة الجديدة ... والنفس الإنسانية فى حاجة إلى لطف لتعبر بكل أمن وسلامة الهوة الفاصلة بين الحياتين القديمة والجديدة...فى حاجة إلى رحمة حتى تستبين الأمور وتفهم وتستوعب وتألف وتتعود .

ولكن بعد أن يستقر المجتمع وترسخ الدعوة فى نفوس الناس ، ويستقيم الواقع الوضع الآن فى حاجة إلى شخصية من طراز آخر... تحافظ على بقاء الوضع على ما هو عليه ، إلزام الواقع بالقيم والمبادئ والمعايير التى ارتضاها الناس والوقوف بهم عند تلك الحدود ، وعدم السماح بتعديها أو تجاوزها ، ليس فى نيته التصالح مع الواقع أو مهادنته

١ - سورة الأنفال : من الآية ٦٧ : ٦٨ .

أو التكيف معه أو التوافق ... وإنما السيطرة عليه والتحكم فيه وإرغامه لإرادته ... لا توجد لدى الشخصية بدائل أو اختيارات ، لا يلجأ إلى اللين أو التسامح ، ليس هناك ضرورات ينزل عليها أو يخضع لها ... شخصية مثالية فى أعلى درجات المثالية مع إرادة ينصهر الحديد أمامها ، وتنحنى جباه الجبابرة أمامها .

وهى ليست مثالية خيالية تعتزل الواقع أو تنكره أو تبتعد عنه ولا نريد أن نقول إنها تجابه الواقع ، بل تريد أن تخلق واقعا يتناسب مع ما تؤمن به ، وما تعتقده ، وما يجيش فى ضميرها من قيم الخير والحق والعدل "والمثالى يضرب بالتغييرات الواقعية عرض الحائط إنه يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الواقع الخارجى برمته هو الخليق بالخضوع لما يعتمل بذهنه من صور ذهنية ومن تقيمات ، فالخارج يجب أن يكون مطواعا للداخل ، ومنبع الحقيقة ليس الواقع الملموس" [1]

هو على ثقة لا تهتز أنه على الحق ، وبيده الدلائل والبراهين ... فلم الضعف ؟ ولم التهاون ؟ لا تنقصه القوة ولا الشجاعة ، ولا الجرأة ولا الإرادة ، قرآن منزل من عند الخالق وسنة توجز أقوال وأفعال وإقرارات رسول الله ﷺ ، مع عقل مستنير وحكمة شاملة ونظر ثاقب ، ونية خالصة ، وهمة وثابة ، وفى يده أن يتجوز وأن يترخص وأن يتساهل وأن يترفق ولا لوم ولا تثريب عليه فى ذلك ، وهذا سيجنبه الكثير من العنت والمشقة ، ولكن من قال إن عمر يبحث عن الراحة والهدوء والدعة ؟ أنه يريد أن ينفذ القيم والمبادئ ويطبقها ويطوع الواقع لها ، أو قل هو لا ينظر إلى الواقع ولا يعطى له أى اعتبار ، إنه يتغلغل فى ظواهر الشرع ليصل إلى الروح إلى الحكمة إلى الجوهر .

---

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد ٤٦ .

وهذا يفسر الكثير من المواقف والكثير من قرارات عمر حتى ما خالف فيها نصا صريحا فى القرآن ، وخالف فيها رسول الله ﷺ ، مثل قضية (المؤلفة قلوبهم) وعدم التسوية فى العطاء بين المسلمين .

"فكان عمر يجتهد فى تعرف الحكمة التى نزلت فيها الآية ويحاول معرفة المصلحة التى جاء من أجلها الحديث ، ويأخذ بالروح لا بالحرف ، وعلى ضوء هذه وتلك يسترشد عندما يفصل فى المسألة المعروضة عليه ، وكان عمر جريئا فى العمل بالرأى ، ولو خالف ذلك بعض النصوص والقواعد التى كانت معروفة ومعمولا بها من قبل ، ليكون الحكم ملائما لأحوال المجتمع الإسلامى الجديد"[1]

وقد استمد عمر تكامل شخصيته ، وحافظ عليها من الانفصام والتناقض والفساد من خلال موقفه القوى والصلب من الواقع ، فكل الأمراض النفسية والخُلقية والتى من شأنها تقويض شخصية الإنسان واردة إليه من الواقع ، فحينما يكون الواقع أقوى من الشخصية أو حينما تصاب الشخصية بوهن أو ضعف عن أن تواجه الواقع فستجد الفساد والتفسخ يستشرى فى الشخصية بسرعة رهيبة

والذى جعل لشخصية عمر هذا النمط أو هذا القوام أو المزج تلك المنظومة المتماسكة والمتكاملة من القيم والمبادئ ، والتى لم يكن يؤمن بها فحسب إيمانًا يتذبذب مع الأيام أو مع الظروف قوة أو ضعفا ، ولكن تلك المنظومة امتزجت بكيانه امتزاجًا عجيبًا إلى الدرجة التى تجعلك لا تستطيع أن تفرق بين عمر كإنسان من لحم ودم وبين القيمة المجردة التى يجسدها عمر ، ولا تستطيع أن تفصل بين عمر العادل والعدل ، فقد أصبح الأمران أمرًا واحدًا أو لنقل إن عمر نجح نجاحًا منقطع النظير أن يمنح القيم والمبادئ حياة ومكانًا

١ - القضاء فى الإسلام بوجه عام وفى مصر بوجه خاص . د/ عطية مصطفى مشرفة ١٠٤ .

وجودًا وتجسدًا فى الواقع ، وإن عمر استمد من القيم والمبادئ هذا التجرد والترقى والسمو والعلو عن تعاريج الواقع وتناقضاته .

"فالشخصية المثالية هى الشخصية التى تسيطر على الواقع بما لديها من صور ذهنية ومن تقييمات ، وليست هى الشخصية التى تخضع لمتطلبات الواقع . من هنا فإن الشخصيات المثالية التى ترى أن التكامل لا يتأتى لها إلا بالتلحف بما يعتمل بدخائلها من فكر وتقييم ، كثيرا ما تصطدم بالواقع من حولها ، ولكن مهما حاول الناس من حولها ثنيها عما تستمسك به ، فإنها لا تلين وتعتقد أن ما يطلب منها التنازل عنه هو جوهر كيانها وليس قشور ذلك الكيان ، فالهوية الشخصية لدى المثالى ... وهى الهوية التى تجعلها شخصية متكاملة – هى الهوية الذهنية الوجدانية والمتمثلة فى المفاهيم المجردة من جهة وفى تقييماتها التى لا تخضع للتغيير أو التعديل من جهة أخرى" [1]

ولكن إذا كان عمر متمسكا بالقيم والمبادئ ، ولا يساوم ولا يقبل بدائل ولا يتزحزح ولا... ولا ... ألا يمكن اعتباره شخصية جامدة ثابتة لا تعرف المرونة أو المناورة أو الدهاء أو حتى المكر حينما يسخر لصالح الحق ؟

الدهاء والمكر والمناورة والتلون أمور يلجأ إليها الإنسان خضوعًا لمتطلبات الواقع وسائل يستعين بها الإنسان للتغلب على مشكلات ظهرت له أو سوف تظهر ، أو أدوات يتخذها الإنسان لعدم الاصطدام بالقضايا والمشاكل الواقعية يرجئ الاصطدام إلى حين حتى يجد الوقت المناسب ، أو ينتهز فرصة تمكنه – فى ظروف معينة – من التغلب على تلك المشكلات .

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٤٦ .

إذن تلك الأساليب دليل على قصور الشخصية ، أو نقص فى صلاحيتها للوصول إلى هدف أو غاية ، أو دليل على عدم التوازن والتعادل بين الشخصية والواقع ، فحينما يقول (معاوية) : (والله لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إن شدوها أرخيتها ، وان أرخوها شددتها) هذا القول يدل على مدى ذكاء ودهاء ومكر شخصيته ، وأنه يدرك كيف يتكيف ويتناغم مع الواقع ، وكيف يحافظ على تلك العلاقة وإن كانت فى غاية الوهن والضعف . وأنَّى له الحفاظ على تلك العلاقة بغير النزول والخضوع والاستجابة لما يتطلبه الحفاظ على تلك الشعرة وتقديم تنازلات والإقدام على تضحيات ؟!

أما عمر فلا يلجأ إلى الدهاء أو المكر أو المناورة ، لأنه ليس فى حاجة إلى ذلك لا تلجئه الضرورة إلى هذا ، لأن ذكاءه من نوع فريد : "وهو ذكاء الفطرة السوية والتجربة اليقظى ، ومن ثم فهو لا يعرف المراوغة ، ولا المماراة ... إنما يتحرى الحق وينفذ إلى اللباب المستتر فى مثل لمح البصر أو هو أقرب" [1]

إنه كعاصف يقتلع كل ما يحول بينه وبين الوصول إلى غايته ، كشلال كاسح يجرف كل ما يمنعه أن يصل إلى هدفه فى الوقت وفى المكان الذى حدده سلفا وكما قال عن نفسه : "لستُ بالخب ولكن الخب لا يخدعنى "وهى عبارة تصور طبيعة نبوغه وذكائه فهو ليس ذكاء عدوانيا ... ولا ذكاء مراوغة وختل ، ليس ذكاء هجوم . بل .... ولا ذكاء مقاومة .

إنما هو ذكاء تفوق ، ينفجر من شخصية متفوقة ، ويعمل فى خدمة مبادئ متفوقة

هو إذن ليس ذكاء معارك ، بل ذكاء بطولات وليس ذكاء مدرسيًّا ، بل ذكاء خلاقا مبدعا ، وهذا أيضا من آيات هذا العقل الذى يؤمن بالنص ويذعن للأثر ثم هو مع هذا

١ - بين يدى عمر – خالد محمد خالد – ١٣١ .

صوال جوال . يستشرف الغيوب ويكاد أحيانًا يسبق الوحى مما جعل رسول الله يقول مشيدًا بهذه الفطنة الخارقة . (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) [1]

وقال (المغيرة بن شعبة) مخاطبا (عمرو بن العاص) :

"أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئا فيلقنه عنك ؟ والله ما رأيت عمر مستخليا بأحد إلا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع" .

هذا الثبات على المواقف والذى لا يتغير تحت أى حجة من الحجج ، وهذا التمسك بالقيم والمبادئ والمعايير والذى لا ينثنى تحت أى مسمى من المسميات يوحى بأن عقل عمر محدود ، وشخصيته ضحلة "إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين ، الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالى بالنقائض ، ونظروا إلى جملة آرائه فى المسائل الجلى فإذا هى من الآراء التى يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق إلى غرض مائل لا تنحرف عنه قيد شعرة كأنه جهل ما فى الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود ، ولا يلتفت إلى شىء فى نفاذه أو يعوقه عائق دونه"[2]

ولكن هذا لمن ينظر نظرة عجلى ينقصها النفاذ إلى الباطن .. إلى الجوهر فهذا الثبات على المواقف والتمسك بالقيم راجع إلى دينامية وحركة فوارة لا تتوقف فى الداخل كل الملكات تعمل ، هناك معمل ، ورشة عمل تتلقى المعلومات الكثيرة وتدرس وتفحص وتقارن وتفاضل وتوازن ثم تستخلص النتائج وتصل إلى قرار حاسم لا رجعة فيه ، ولا أحد

١ - بين يدى عمر – خالد محمد خالد – ٣٣٣ .
٢ - عبقرية عمر – عباس محمود العقاد : ٥١ – ٥٢ .

يستطيع رد هذا القرار إلا صاحبه ، إن ظهر أن به اعوجاجا أو به خطأ ، يعاونه فى ذلك عقله وحدسه وما قد يسره الله من إلهام "فالشخصية وفق هذه النظرية المثالية تتسم بالثبات والاستاتيكية الخارجية ، بيد أنها تتمتع بدينامية داخلية عقلية روحية هى دينامية الكشف والإلهام . فالمثالى يؤمن بأن لديه قوامًا عقلانيا روحيا مستقلا عن الواقع الخارجى ليس بحاجة إلى استقدام خبرات واقعية من الخارج بل إنه يستطيع أن يغوص فى آفاق عقلانية بعيدة الغور فيأخذ عنها بأعمال العقل أحيانًا ، وبالحدس أحيانا ثانية وبالإلهام أحيانا ثالثة"[1]

- عقل
- حدس
- الهام

يقود أمة متصاعدة نحو الشكل الإمبراطورى بكل ما يشمله هذا الشكل من تعقد أجهزته ، وتعدد إمكاناته ، جيوش فى كل حدب وصوب قواد أكفاء يحققون انتصارات تشبه المعجزات ، حدود الدولة تتسع باطراد ، وشعوب مختلفة المشارب والطباع تدخل فى الإسلام ، ابتكار أنظمة ، وابتداع أجهزة ، تشريع قوانين ودساتير ... ونسأل ما مؤهلاته العلمية ؟! ما الشهادات أو الإجازات التى حصل عليها ؟!

من أين استمد هذه الكفاءة الفائقة والعبقرية النادرة ؟

فى كل المشكلات والمعضلات التى واجهها وواجهته ، وفى كل قراراته حالفها الصواب ورافقها السداد ... مراقبة واصبة لكل عماله القريب والبعيد ، ومحاسبة مستمرة

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٤٦ .

وفورية ، بالقسطاس المستقيم . الأوامر والقرارات التى يصدرها تنفذ حرفيا من قبل عماله وموظفيه . فالمقرر هو عمر ... والآمر هو عمر .

إيمان واقتناع من كل فرد فى جهاز الدولة بقدرته الفائقة وكفاءته وحسن سياسته حتى تلك القرارات والأحكام التى تغضب وأغضبت البعض يتقبلونها عن اقتناع، مدركين أنه الحاكم الذى ينظر فى المقام الأول إلى المصلحة العامة وما فيه خير للإسلام المسلمين العنصر الشخصى لا وجود عنده ولا اعتبار لديه ، التنزه عن الهوى ، الموضوعية ، التجرد من العواطف التى من شأنها أن تدفع صاحبها إلى المجاملة والمحاباة لأناس على حساب أناس آخرين ... ويجوز على الذين أحاطوا بعمر وعايشوه وعرفوه وخبروه أن تمتلىء قلوبهم نحوه بكل المشاعر الإنسانية إلا شعور واحد ... محال أن تجد أحدًا ينظر إلى عمر من خلاله أو حتى يضمره له وهو شعور الكراهية "عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب إنسان لأنه كان على عظم (شخصيته) مبرأ من العنصر الشخصى ، فى معاملة الأصدقاء والخصوم ، وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا (العنصر الشخصى) ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا لهم صوالاً عليهم ، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رؤوسهم يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة ولهذه الخصلة ذكر، بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء" [1]

١ - عبقرية عمر – عباس محمود العقاد ٢٣٥ .

حياة حافلة بالفتوحات والانتصارات والإنجازات والابتكارات والتأسيس لأعظم دولة عرفتها الإنسانية قامت على الحق والعدل ، لا يستمد حاكمها قوته من جيشه أو مكره ودهائه أو أجهزته الكثيرة والمتعددة ، وإنما يستمده من الشرع .

علام اعتمد عمر فى كل هذا .

- عقل .
- حدس .
- إلهام .

هل المسألة عنده تدرج من العقل إلى الحدس إلى الإلهام ؟ هل هناك مسائل تعرض عليه ، فتارة يستخدم عقله وأخرى يستخدم حدسه وثالثة إلهامه ؟

أم أن الأمور الثلاثة متجمعة فى شخصية عمر ، فهو عقلانى حدسى إلهامى ؟

أم أن الأمور الثلاثة هى أمر واحد ، ونحن من صنفنا هذا التصنيف وجزأنا هذا الكل ؟ فالعقل يشتمل على الحدس والإلهام ، والحدس يشتمل على العقل والإلهام ، والإلهام يشتمل على العقل والحدس ؟

تعريف الحدس (intuition) فى علم النفس يدل دلالة واضحة أن الأمور الثلاثة ليس بينها فاصل حاسم يفصل كل أمر عن الآخر فهى مرتبطة ارتباط الجزء بالكل ، أو قل انبثاق الوحدة المتكاملة عن الكثرة المتعددة .

- "الحدس عبارة عن قدرة ذهنية معينة يصل الحائز عليها إلى الحقائق دون أن يمر فى سلسلة من المشاهدات التى يستنتج منها النتائج التى تفضى إليها

- وهناك من يعتقدون أن الحدس عبارة عن تلخيص أو صهر للخطوات التى يمر فيها الشخص العادى لدى ملاحظته للأشياء والأحداث فالحدس بهذا الفهم عبارة عن حذف للعمليات الذهنية الفرعية والاقتصار على العمليات الذهنية الرئيسة .
- ومن الناس من ينظرون إلى الحدث باعتباره نوعًا من الإلهام فهو فى نظرهم إلهام عقلى وليس إلهامًا روحيا .
- ومن الناس من يعتقدون أن الحدس عبارة عن غريزة عقلية تتجمع فى نطاقها الخبرات السلفية فبمقتضى هذه النظرة فإن خبرات أسلافنا القريبين والبعيدين تتركز وتتلخص فى بؤرة معينة هى تلك الغريزة الحدسية التى إذا ما تفتقت وتفتحت ، فإنها تجد لها منفذا عمليا وحياتيا فى أنشطة المرء الذهنية .
- ومن الناس من يعتقدون أن الحدس عبارة عن نشاط ذهنى مرتفع المستوى يتمتع به أصحاب الذكاء المرتفع جدًّا فالشخص الذكى جدًّا لا يكون فى حاجة إلى المرور خطوة فخطوة فى أنشطته الذهنية ، بل هو يخطو خطوات سريعة وواسعة ، ويتمتع بالقدرة على عمل قفزات واسعة عقلية تجعله يصل إلى النتائج مباشرة دون ما حاجة إلى اتباع سلسلة التفكير التى ينحو وفقها تفكير الشخص العادى .
- أخيرا فإن هناك من الناس من يعتقدون أن الحدس قدرة مغروزة فى الطبيعة البشرية بل وفى الطبيعة الحيوانية"[1]

كل تلك الآراء أو التعريفات ، تعطى مؤشرا أنهم يتحدثون عن شىء واحد يتكون من ثلاثة عناصر ، وهذا ينطبق على عمر .

فنستطيع أن نقول إن شخصية عمر عقلانية .

---

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٥٥ .

ونستطيع أن نقول إن شخصية عمر حدسية .

ونستطيع أن نقول إن شخصية عمر إلهامية .

ونستطيع أن نقول إن شخصية عمر تجمعت فيها الأمور الثلاثة ، أو أن شخصية عمر لها جوانب ثلاثة . ولديك سيرة عمر ، ومواقفه وأفعاله وتصرفاته وقراراته وأحاديثه وكتاباته ، تشهد على ذلك ، ونستطيع أن نصنف ما هو عقلى وما هو حدسى وما هو إلهامى ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نفصل جانبًا عن الجانبين الآخرين فهناك كما قلنا تكامل .

على هذا فشخصية عمر شخصية متكاملة وصلت إلى درجة عالية من التكامل وامتلأت وتشبعت بتلك الصفة ، حتى إنها أرادت أن تفيضها على الكون وعلى من حولها فكل من يقترب منها أو تقترب منه تريد أن تمنحه تلك الصفة فهى لا تكتفى أن تحوذ على تلك الصفة ولكنها تريد أن تشيعها فى الواقع حولها إنها كالنار التى تشعل كل ما يقترب منها أو تقترب منه وتحوله إلى نارٍ مثلها ولكنها نار لا تحرق ولا تدمر بل تصقل وترتقى وتسمو بالإنسان درجات علا "فالشخص الذى يحظى بشخصية متكاملة – وفق هذه النظرية – هو ذلك الشخص الذى آمن وأيقن أن وجوده الحقيقى لا يحده ذلك الجسد بل إن وجوده يتمثل جوهرى فى وجود رُوحه ، وكلما ترعرعت تلك الروح وانتعشت وتغذت بالغذاء الروحى ، كان وجوده إذن أقوى ، ومهما تعرض جسده للضعف أو المرض ، ومهما لقى من عذاب أو جوع أو تعرض للبرد أو الحر أو حتى للكى والضرب ، ومهما حرم من أطايب الحياة أو ارتمى فى حمأة الفقر فإنه يظل قويا بروحه وموجودًا بذلك القبس العلوى الذى لا يقبل البلى طالما أنه يجد الرعاية والعناية متجردًا من الهوى ومرتفعًا إلى

آفاق الوجود الحقيقى ، فيرى ما لا عين بشرية ترى ، ويسمع ما لا أذن بشرية تسمع ويحظى بما لا يستحوذ عليه قلب بشر"[1]

من أجل هذا فشخصية عمر شخصية مرهقة ، متعبة لكل من اتصل بها وتعامل معها ، لأنها تكلف المحيطين بها صعودًا رهقًا ، وتشق عليه أن يرتقى رقيها ويسمو سموها ، ويتكامل تكاملها ، فلا أحد يطيق أن يأكل كما كان عمر يأكل ، ولا أحد يطيق أن يعيش كما عاش عمر ، ولا أحد يطيق أن يعمل كما عمل عمر والدليل على ذلك أن بعض أصحابه أشفقوا عليه من شظف الحياة التى يحياها وخشوا أن يواجهوه ، فتوسلوا بابنته (حفصة) أم المؤمنين رضى الله عنها فجاءته فقالت له : "يا أبتاه ، ويا أبتاه ، يا أمير المؤمنين إن ناسًا من قومك كلمونى فى أن أكلمك فى أن تلين من عيشك . فقال لها : يا بنية غششت أباك ونصحت لقومك" .

ودليل آخر على صعوبة ومشقة تلك الحياة التى كان يحياها ، رأى امرأتين فيه وهو أمير المؤمنين ؛ أما الرأى الأول فهو لـ (أم إبان بنت عتبة) وكان عمر خطبها ولكنها رفضته.. تقول : "إنه رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر إلى ربه بعينه"

والرأى الثانى لأم كلثوم بنت أبى بكر وكان قد خطبها ولكنها رفضته أيضا تقول "إنه خشن العيش شديد على النساء"

وكل هذه براهين ودلائل على عظمة الشخصية ، وعلى عظمة ما كان يدعو إليه ويحمل الناس عليه ، فهو دليل على قيمة هذا الشىء وكما يقال :

(الثواب على قدر المشقة) ، وأى شىء يدعونا إلى الراحة والدعة والاسترخاء فهى دعوة لا تليق بالإنسان الشريف : "فالدعوة التى تزين لنا ما نستنيم إليه ليست بدعوة عظيم

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٤٤ .

والدعوة التى ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا هى الدعوة العظيمة فى أصدق مقاييسها وهى التى تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى وحسبها ذلك (برهانا نفسانيا) لا نهتدى إلى خير منه ، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا ما يشق علينا وانتقل بنا إلى طور فوق طورنا ، فإن كنا على استعداد لهذا الانتقال مالت إليه نفوسنا كما يميل الجسم إلى النمو وإن كان نموه ليكلفه عنتًا عند الولادة وعنتًا عند التسنين ، وعنتًا عند المراهقة وعنتًا عند بلوغه سن الرشد والاستقلال

وإن لم نكن على استعداد كرهناه وحسبنا الراحة فى كراهته وهى فى الحقيقة داء يمنع النماء .

فمرجع (البرهان النفسانى) الصادق فى تقدير العظمة أنه سبيل الفداء فى طريق النماء ، وكل ما تركنا كما نحن أو تحدر بنا دون ما نحن فيه فبينه وبين العظمة حجاب وليس له من ضمائر النفس برهان" [1]

نعم ... إنه أصدق برهان نفسى على مدى نبل تلك الشخصية التى كلفت من نفسها عسرًا وعنتًا ومشقة ، وكان فى طوقها أن تتخذ من الأمور أيسرها وألينها وأسهلها، وحملت من حولها – راضين ومقتنعين – أن يتحملوا هذا العسر والعنت والمشقة وكان فى وسعه أن يجنبهم وطأة المراقبة الواصبة ، ودقة الحساب العسير ولكنه شاء لنفسه أمرًا وشاء للناس نفس الأمر حتى يجتمع هو وهم على أمرٍ واحد فيه الرضا لله ولرسوله الكريم .

وكما يقول المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

١ - عبقرية الصديق – عباس محمود العقاد ٥٧ .

لدى عمر عقيدة قوية ، إنه خلق ليؤدى دورًا فى تلك الحياة ، وأنه مازال مرتبطا بالوجود والحياة طالما هناك بقية من هذا الدور لم يؤد ، أما وقد انتهى من أداء دوره أو كانت هناك عوائق تعوقه عن أداء هذا الدور فليس هناك مبرر للبقاء فى هذه الحياة .

الحياة بلا دور يؤدى على أكمل وجه لا يعرفها عمر .

الوجود بلا هدف يحقق فى أتم صوره لا يفهمه عمر .

والحياة بلا دور والوجود بلا هدف نوع من العبث ، وحاشا لعمر أن يكون عابثا ولو فى لحظة من لحظات وجوده .

وكما قلنا فى فصل سابق أن الدور الإنسانى – مهما عظم – موقوت بوقت ومحدود بحدود ، أكثر من يعرف هذا الوقت الذى ينتهى عنده الدور ، وتلك الحدود التى تحد وتحول بين أداء الدور هو صاحب الدور نفسه ، وهذا شىء طبيعى ، ولابد أن يعترف به الإنسان أمام نفسه أولا ، وأمام الناس ثانيا يحتم هذا الاعتراف نبل وشرف وكرم الشخصية .

استقالة عمر :

وإذا كان الموظف الصادق أو أى صاحب دور يذهب إلى رئيسه مستأذنًا فى تقديم استقالته ، وللرئيس أن يرفضها أو يرجئها إلى حين أو يقبلها ... فلمن يذهب عمر وهو الحاكم والخليفة وأمير المؤمنين ؟

ليس من أحد فوقه إلا الله .

ولا أحد يعلم حاله حق العلم سوى الله .

ولا أحد يعلم ما توسوس به نفسه غير الله .

إذن فليتجه إلى الله .

"وكان ﷺ ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما يستطيع أداءها ثم لا معنى لها إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم كومة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء ودعا الله : "اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك" [1]

فرغ من أداء فريضة الحج ، وكأنه فرغ من أداء دوره المكلف به ، استلقى على الأرض رفع يديه إلى السماء ، يناجى ربه .

- كبرت سنى
- ضعفت قوتى

إحساس صادق أنه لا يستطيع أن يؤدى دوره فى أكمل صورة لا يرتضى غير الكمال بديلا ، ولا يبتغى عنه حولا ، أما وهناك عوائق تعوق عن أداء الدور الكامل عمر الشاب أو الرجل الذى تتفجر نفسه نشاطا وحيوية ، الذى يسير ليلاً نهارًا منفقدا الرعية زاجرًا ... واعظا ... منبهاً .... موبخًا ... ضارباً ... قاضيا ... حاكما ... آمرًا ... لم يعد عمر القوى .. الجبل الأشم الذى تنصهر أمامه أعتى القوى وأشدها عنادًا .. لم يعد .

- انتشرت رعيتى .

إحساس صادق بالمسئولية ، شعور جارف أنه فى مأزق ، ومبعث هذا الشعور أنه يبتغى الكمال فى مهمته وفى رسالته ، لا يستطيع أن يكذب على نفسه ، ولا يستطيع أن يكذب على رعيته ، وإن استطاع فهل يستطيع أن يكذب على الله ؟

والخروج من هذا المأزق .

---

١ - عبقرية عمر – عباس محمود العقاد ٢٣٧ .

- فاقبضنى إليك :

لا مبرر للوجود ، لقد استنفدت كل ما لدى من قدرة وطاقة ، وأديت دورى ولكن الخروج من الوجود الواقعى ليس على أى صورة ولا على أى كيفية .

- غير مضيع ولا مفرط :

فالذى عاش طوال عمره يجاهد ويكافح ويناضل فى سبيل أداء رسالة ، ويصل بهذا الأداء إلى الكمال أو قريب منه ، لا يرتضى أن تكون خاتمة تلك الحياة إلا خاتمة تليق به حياة لم يقدم فيها على إفراط ولا تفريط .

- اللهم ارزقنى الشهادة :

قمة وذروة الكمال فى الحياة الإنسانية أن تختتم بالشهادة ، وقد قلنا فى فصل سابق "ليس من نهاية تتوافق وعظمة تلك الحياة وجليل صاحبها سوى الشهادة .

- واجعل موتى فى بلد رسولك :

أمنية على الله ... إنه لم يحب إنسانًا كما أحب رسول الله ، لقد عاش معه حياة مديدة حافلة ذاق فيها حلاوة الحياة مع النبى وأنس القرب ومتعة الجهاد ويريد أن يذوق حلاوة الموت فى بلد رسول الله ، وأنس الدفن بجواره ومتعة الصحبة فى الحياة الآخرة .

بدون خاتمة

يحار المرء حين يسأل نفسه : بم ستختم هذا الكتاب ؟

لقد انتابنى شعور غريب وأنا أكتب هذا الكتاب عن عمر! أنه لن يقدر لى إنجاز، ولن يأتى اليوم الذى أكون قد كتبت آخر كلمة فيه ؛ لأنى أدركت أن هذا الأمر لا أملكه وليس لى إرادة فيه ، لأن معنى انتهاء الكتاب أنى قد وفيت الغرض الذى من أجله كتبت وأديت الغرض الذى قصدت ... وأنى قد جليت غامضًا أو كشفت خافيا ، أو وضحت مبهمًا . وأى من تلك الأمور لم أصل فيها إلى أرب أو غاية على مدار الكتاب .

ولقد شعرت إنى وسط ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج ، وأصدقك القول وأصارحك النية ... أنى فكرت فى التراجع وكنت قد كتبت شيئا ... حينئذ سخرت من نفسى وقلت : إن من أعاجيب القدر ، وتقلبات الزمن ، أن يتاح لإنسان مثلى – ولغيرى أن يكتب عن شخصية عمر ، وأن أقرن به ، وأن يكتب اسمى تحت اسمه على الغلاف !! أين كل هؤلاء الذين كتبوا عنه ، وحاسبوه ، ونقدوه ، وغضبوا عليه أو رضوا عنه ... أين هم منه ؟!

ولكن كما قلت إنها أعاجيب القدر ، وتقلبات الزمن .

إن من فيض عظمة العظماء – وفى مقدمتهم عمر – ومن نبلهم وكرمهم وشرفهم ، أن أتاحوا وسمحوا – عن سخاء – بالكتابة عنهم والاقتراب منهم

وهذا جانب آخر من جوانب عظمة عمر – وكل جوانب عمر عظيمة – أن أتاح لى الكتابة عنه ، وأستميحه عذرًا ، وألتمس صفحه وغفرانه ، لأن الكتابة عنه نوع من العجز

والتقصير، نوع من تجاوز القدر وتعدى الحدود كمال قال شوقى – رحمه الله – وهو يمدح رسول الله ﷺ :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى .. بمدحك بيد أن لى انتسابا

ولن أقول كما قال شوقى ، إن بيننا وبين عمر صلة نسب ، لأن تلك الصلة ظلت تضعف وتضعف على مرور الزمان ، وضللنا عنها ضلالا بعيداً ، وبأيدينا – إن شئنا – أن نعيدًا ما انقطع ، وأن نصل ما انفصل ، إذا قوى فى ضمائرنا أننا أبناء هذا الرجل العظيم فكرا ، ومواقف ، وأفعالا ، وإحساسًا ، وإذا صدقت نياتنا أن نسير على نهجه – ما وسعنا ذلك ، وصحت إرادتنا أن نحقق بعض ما حققه ، ونصل إلى بعض ما وصل إليه .

وإن نجح الكتاب أن يذكر البعض بوجود تلك الصلة من النسب وأنها فى حاجة إلى الرعاية من جانبنا ... يكون الكتاب قد نجح بعض النجح ، وصدق بعض الصدق ، ووفى بعض التوفية .